ملاك البرية المقدسة

القديس يوحنا المعمدان فى فكر آباء الكنيسة الأولى

القمص تادرس يعقوب ملطي

التقويم الكنسي
والحياة اليومية المتهللة في الرب

الكتاب الثالث

ملاك البريَّة المقدسة

بمناسبة عيد استشهاد القديس يوحنا المعمدان

٢٠٢٠

القمص تادرس يعقوب ملطي **الشماس بيشوي بشرى فايز**

Queen Mary & Prince Tadros
Coptic Orthodox Church
283 DAVIDSON MILL ROAD
SOUTH BRUNSWICK, NJ 08831

St. George Coptic Orthodox Church
SPORTING – ALEXANDRIA

بسم الآب والابن والروح القدس

الله الواحد، آمين.

اسم الكتاب: القديس يوحنا المعمدان.

المؤلف: القمص تادرس يعقوب ملطي والشماس بيشوي بهنام.

تصميم الغلاف: عماد رشدي

رسم أيقونة داخلية: بولا عاطف

الطبعة: ٢٠٢٠.

الناشر: Queen Mary & Prince Tadros Coptic Orthodox Church

كنيسة الشهيد مار جرجس – اسبورتنج.

المطبعة:

١

معاهد لإعداد القديس يوحنا المعمدان

هل من بين المولودين من النساء من هو أعظم منه؟

كتب القديس مار يعقوب السروجي عن القديس يوحنا المعمدان، جاء فيه[١]:

❖ الكلام عن يوحنا مهيب جدًا، وليس له جمال واحد حتى نذكره، بل هو كثير الجمال.

كيف أجرؤ على وصف هذا الجمال؟ فالكلمة تتعطل بسبب كثرة جماله.

بأية كلمات وميامر أكرز بهذا العظيم؟ فاللسان يعجز ويرتجف من قصته.

هل أدعوه **نبيًا**؟ إن خبره مُختلط مع الرسل؛ هل اعتبره **رسولاً**؟ هوذا دوره موضوع بين الأنبياء؟ إنه **رئيس الكهنة** الذي به كمل واستراح الناموس، وبعده أصبح لاويًا دون ممارسة الكهنوت.

هذا هو المولود من بنت هارون جسديًا، ويُصعِد ذبائح روحية مثل ملكي صادق (تك ١٤: ١٨). هذا هو المختون حسب الناموس من قِبَل العهد القديم، وها هو يكشف عن الختان بغير أيادٍ في معمودية العهد الجديد.

هذا الذي صار مثل **الوسيط** للعهدين، فختم الواحد وبدأ بالآخر لأنه كان صادقًا...

هذا الذي قَبِل الروحَ القدس في بطن أمه، وكرز هناك بحَبَل المباركة (العذراء مريم).

هذا **المحبوب** الذي رقص وهو جنين في بطن أمه أمام الكائن بلاهوته منذ الأزل الذي أتى إلى بطن العذراء...

هذا الذي رفس أمه برقصه، لتبارك الأم الشابة التي كانت تحمل الجنين العتيق الأيام.

هذا الذي بدأ بالكرازة من البطن، ولم يتوقف إلى أن قال له السيف: اسكت.

هذا الذي ركض إلى النهر مثل **الصياد**، وألقى شبكته هناك، وملأها صيدًا روحيًا.

هذا الذي صار **صوتًا في القفر**، وخرج ليمهد الدرب للشعوب ليأتوا عند الله.

---

[١] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان، وميمر ٩٧ (على مدائح يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان ترجمة دكتور بهنام سوني).

هذا الذي توصَّل أن يلمس الابنَ ويسمع الآبَ ويرى الروح ويكرز بالثالوث القدوس...

الكلمة الإلهي قد رأى جماله وصوّره بألوان كلمته وكتب عنه: لا يوجد بين المولودين أعظم منه (مت ١١: ١١).

هل التحق بمعاهد تهيئه للخدمة؟

١. **المعهد الأول، معهد النبوات الإلهية:** قبل خلقة يوحنا المعمدان وهب الله ملاخي النبي أن يعلن بروح النبوة على لسان الربّ: " هأنذا **أرسل ملاكي فيهيئ الطريق أمامي.** ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه، وملاك العهد الذي تسرون به. هوذا يأتي، قال رب الجنود" (ملا ٣: ١).

الله بسابق معرفته اختار يوحنا قبل خلقته الذي يهيئ الطريق أمام كلمة الله المتجسد، ودعاه ملاكه. إنه قادم ليعلن الرسالة الإلهية التي استلمها من السماء وليس من البشر. لم يبدأ يوحنا التدريب في مدرسة بشرية، إنما **من خلال النبوات أدركنا أن إرساليته جاءت من قِبَل الربّ نفسه.** هذا هو المعهد الخفي الذي إن صح التعبير لحق به يوحنا خلال سبق معرفة الله له.

هذا المعهد يدعو كل مؤمن أن يرفع قلبه لله، ويسأله: "يا فاحص القلوب اكشف لي طريق خدمتي اللائقة بي، فلست أنتظر دعوة بشرية للتكريس أو الخدمة لحساب ملكوتك بطريق أو آخر.

لا تسمح لي أن أرتبك في اختيار طريق حياتي: هل أمارس الشهادة لك وأنا أمارس عملي في العالم وأقيم عائلة مقدسة، أم أتفرغ لحياة البتولية أو الخدمة؟ هل أشهد لإنجيلك في داخل الوطن الذي أعيش فيه أم تدعوني لهذا العمل في بلدٍ آخر؟! هل أتفرغ تمامًا للدراسة اللاهوتية أم أبذل كل جهدي في العمل الرعوي، أو في حياة التأمل والوحدة في البرية الخ؟

مسكين الإنسان الذي يتكل على اختياره بواسطة إنسان مهما كان دوره الكنسي أو الاعتماد على قراره الشخصي دون الاتكاء على صدر المخلّص.

٢. **معهد البيت المقدس:** المدرسة الثانية التي كان لها دورها في حياة القديس يوحنا المعمدان قبل ميلاده بسنوات كثيرة هي أسرته المكوَّنة من أبويه البارين المطوبين زكريا الكاهن واليصابات. ولعلهما منذ زواجهما كانا يصليان من كل قلبيهما أن يهبهما ابنًا مقدسًا يتسلم الكهنوت من والديه ويسمو فيه ليحقق ما لم يحققه والداه. استجاب الربّ لهما ووهبهما ملاكه، هذا الذي يهيئ الطريق للمسيَّا مخلّص العالم. يقدم لنا هذان الأبوان نموذجًا، ليس فقط للمتزوجين بل وحتى للبتوليين – أيًا كان عمرهم – أن يقدس الله الجيل الجديد لا ليصير على المستوى الروحي للجيل الحالي، بل أن يلهب روح الله قلوبهم

فيتمتعوا بالتعرف على الأسرار الإلهية والشهادة لإنجيل المسيح والعمل على التجديد والبنيان لملكوت الله. المؤمن الحيّ يصلي ويعمل ليكون الجيل القادم أكثر قداسة وورعًا ومعرفة وخدمة من الجيل الحاضر.

٣. **معهد التبكير في اللقاء مع الربّ:** التقى يعقوب بن إسحق بالربّ وهو جنين في بطن أمه، فقيل عنه "أحببت يعقوب" (رو ٩: ١٣). والتقى يوحنا المعمدان وهو جنين فركض مبتهجًا عندما دخلت القديسة مريم في بيت اليصابات وزكريا الكاهن، بل وقام بالكرازة لأمه، فقالت: "من أين لي أن تأتي أم ربّي إليّ؟" (لو ١: ٤٣).

لم ينتظر الجنين يوحنا المعمدان يوم ولادته، إنما شارك السمائيين فرحهم بالربّ فركض مبتهجًا وشهد لوالدته عن المسيًا المتأنس وهو في بطن العذراء مريم قبل أن يتعلم يوحنا لغة بشرية ينطق بها. فلماذا لا نسرع نحن بالتمتع بالشركة مع السمائيين بالصلاة والتسبيح، والشهادة لإنجيل المسيح منذ طفولتنا؟

لقد حذرنا القديس مار يعقوب من تأجيل اللقاء مع الله من يومٍ إلى يومٍ، لئلا نصير ملهى في يد عدو الخير يلعب بنا بالتأجيل المستمر لنفقد حرارة الروح!

٤. **معهد البريّة المُقدَّسة: تدرب الرضيع يوحنا المعمدان في البرية المقدسة** على أيدي الملائكة قرابة ثلاثين عامًا، إلى يوم خروجه للخدمة في نهر الأردن. لم يخفيه والده الكاهن في مكانٍ في هيكل الربّ أو أحد ملحقاته. ولم يلتقِ يوحنا بأحد اللاويين أو الكهنة ليقوموا بتعليمه أسرار العهد القديم بما يتضمنه من وصايا الناموس وطقوس العبادة وشرح النبوات، إنما هذا كله تمتع به خلال تربيته في البرية المقدسة.

لا نعجب إن كانت مريم المصرية التي عاشت منذ صباها في الفساد وسلمت جسدها وفكرها وعواطفها للزنا والرجاسات. لكنها إذ تابت في أورشليم لم ترجع إلى مصر لتجلس مع أحد المعلمين، بل انطلقت إلى البرية لتجاهد ضد إبليس وحيله وقواته بالربّ يسوع مخلّص العالم. وكانت المفاجأة للراهب القس زوسيما الذي التقت به أنه سمعها تتكلم بنصوصٍ كثيرة من الكتاب المقدس لم تتعلمه من كتاب ولا سمعته من إنسان.

ما أحوجنا إلى جلسات هادئة مع الربّ وانطلاق نفوسها بالهيام في محبته، والإنصات إلى صوته في داخلنا، ومناجاته طالبين أن يشرق بنور وجهه علينا، ويكشف لنا، ويهيئنا للتناول من جسده بالمقدس ودمه الكريم بفرح ومخافة إلهية,

٥. **معهد اللقاء مع الثالوث القدوس:** من يستطيع أن يصور لنا موقفه وهو يرى السماء مفتوحة ويسمع صوت الآب ويرى الروح القدس حالاً على شكل حمامة ويضع يده على رأس سيده الذي قال عنه انه لم يكن مستحقًا أن يحلّ سيور حذائه (مر ١: ٧).

المدرسة الحقيقية لإعداد المؤمن أو الخادم هي اللقاء الحيّ مع الثالوث القدوس ليتمتع بنعمته فيتقدس فكره وقلبه وعواطفه وجسده وينمو في المعرفة الإلهية ويصير "إنسان الله".

٢

أعظم مواليد النساء

نبي هو أم رسول

تفتتح الكنيسة تقويمها السنوي بموكب الشهداء حاملي الصليب، وفي اليوم التالي تحتفل بعيد استشهاد القديس يوحنا المعمدان الذي **انفردت شخصيته بأمورٍ فائقةٍ، جعلت منه نموذجًا حيًّا للمؤمنين.** يُحسب من فئة أتقياء العهد القديم، حيث تنبأ عن السيد المسيح قبل خدمة السيد مباشرة. وفي نفس الوقت يُحسب من أتقياء العهد الجديد، إذ عاصر بداية خدمة السيد المسيح، بل وقام بتعميده!

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير** على لسان السيِّد المسيح: [نعم إنه قدِّيس ونبي، إلا أنه نبي يفوق الأنبياء الآخرين مكانةً ونبلاً، لأنه لم يعلن فقط عن مجيئي، بل أشار إليّ... وصرخ قائلاً: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطيّة العالم" (يو ١: ٢٩).]

يحسب يوحنا نفسه مطوبًا، لأن أناس الله في العهد القديم يعتبرونه واحدًا منهم، إذ تنبأ عن حمل الله، ورجال العهد الجديد يضمونه إليهم، لأنه رأى الربّ المتجسد وتمتع بالحديث معه والإيمان به.

❖ النبي هو مَنْ يتنبأ بما سيأتي، أما الرسول فيعلن عما تحقق". **تنبأ** القديس يوحنا، وفي نفس الوقت **رأى** حمل الله، فصار أعظم الأنبياء.

القديس مار يعقوب السروجي

لا يحتاج يوحنا إلى شهادةٍ من إنسانٍ أو ملاكٍ، فقد شهد له رب المجد نفسه أنه ليس من بين مواليد النساء أعظم منه (مت ١١: ١١). كما دعاه السراج المتقد أو المنير الذي يشهد له بالحق (يو ٥: ٣٥) وقال عنه المرتل: "رتبت سراجًا لمسيحي" (مز ١٣٢: ١٧).

مقارنته بآباء العهد القديم

❖ إنه بارّ مثل **نوح**، ومحبوب من قِبَل الرب مثل **إبراهيم**، ومذبوح مثل **هابيل**، وتجد فيه جمال **أخنوخ**.
محبوب مثل **اسحق**، ووديع وعفيف مثل **يعقوب**، ومسجون مثل **يوسف**، ومملوء غيرة مثل **إيليا**.
عظيم مثل **موسى**، ولا ينقص شيئًا عن **اليشع**، وهو كاهن مثل **ملكي صادق** الشهير.
كاهن أعظم من **هرون واليعازر وصموئيل**، مصور به وهو نذير للرب أكثر من **شمشون**.
منتخب ومقدس من البطن مثل **ارميا**، وممجد وعال في النبوة مثل **إشعياء**.

مختار مثل **داود**، وجماله يغلب جمال **يوشيا**، ونقي مثل **هوشع**، ويوبخ الملوك أكثر من **ميخا**.
ويعرف الأسرار مثل **حزقيال ودانيال**، وصومه محبوب كصوم فتيان **آل حنانيا**.
إنه يشبه جميعهم، لأن كل الجمال كان مصورًا فيه، ولم يكن يوجد أعظم منه في جميعهم.
إنه بار مثل أحدهم، وقديس مثل آخر، ووديع مثل ثالثٍ، وفاضل مثل رابعٍ، وبتول مثل خامسٍ، ونقي مثل سادسٍ.
من واحدٍ منهم أخذ الصومَ العظيم والنسك، ومن رفيقه التواضع والكمال.
يشبه هذا بالنبوة والنسك، ويشبه ذلك بالغيرة والفقر.
ترى جماله في كل منتصرٍ، ولم يقم أعظم منه في جميعهم كما قيل (مت ١١: ١١).
انظر إلى السماء عندما صعد ايليا، وانظر إلى اللجة وانظر إلى يونان عندما نزل.
سواء ارتفع أو انحدر أو انتقل لا تجد درجة تفوق درجة يوحنا.
لقد قيل: لم يقم آخر أعظم منه، فتش الآن، وقارنه بكل من هو عظيم[1].

القديس مار يعقوب السروجي

يوحنا لم يصنع آيات ظاهرة

وجّه **القديس مار يعقوب السروجي** نظرنا إلى أمرين واضحين في حياة يوحنا المعمدان:

أولاً: كان منذ طفولته حتى بلغ الثلاثين من عمره **مختفيًا في البرية**، يقوم الروح بتربيته بعيدًا عن الانشغالات الأسرية أو اهتمامات المجتمع اليهودي حتى الخاصة بخدمة الهيكل مع أنه ابن زكريا رئيس الكهنة، مبرّرًا بذلك أن الروح وجّه أنظاره منذ طفولته إلى أعماق نفسه. في هذه الفترة لم يقُم بزيارة أورشليم، ولا دخل الهيكل مرة واحدة!

ثانيًا: **لم يصنع أية واحدة** ولا معجزة، ومع هذا حين ظهر من البرية تدفّقت الجموع إليه من أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن (مت ٣: ٥).

❖ منزلة يوحنا لم تُعرف في عالمنا، لأنه لم يصنع الآيات، ولا الانتصارات الجسدية...
كان هدفه أن يشفي أمراض النفس، وبجماله الخفي كان يشبه ملكي صادق.
لم يكن يريد أن يصنع القوات الجسدية، لأنه كان يجتهد ليُلبس النفوسَ نورًا.
جماله خفي، ولم يعرف العالم من هو حتى سمع بأنه لا يوجد بين المولودين من هو أعظم منه.

[1] راجع ميمر ٩٦ على مدائح يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

الروح ربّاه منذ طفولته في الحياة الجديدة، وكل الجمال الذي في نفسه يرجع إلى الداخل[1].

القديس مار يعقوب السروجي

إن كان السيد المسيح قد جاء ليقيم ملكوته في داخلنا، فقد اهتم بيوحنا المعمدان ليقيم منه صوتًا صارخًا في البرية (إش ٤٠: ٣)، وملاكه الذي يهيئ الطريق أمامه (ملا ٣: ١). هذا الإعداد يتطلب ألا ينشغل يوحنا بما حوله، بل يركز بصيرته على أعماقه. والأمر الثاني ألا يستعرض آيات وعجائب، بل يدعو إلى الكشف عن الحاجة إلى تجديد الطبيعة البشرية وتقديسها خلال الصليب لتتهيّأ للعرس الأبدي.

لم تكن إقامته في البراري تضييعًا للوقت، ولا عدم ممارسة العجائب ضعفًا.

إذ تمم الرب الخلاص على الصليب، وقام وصعد إلى السماوات يدعونا لا ننشغل بما لدينا، بل بنفوسنا، ولا نطلب آيات وعجائب، بل عمل الله فينا.

لا نعجب إذ يقول الرسول: "إذًا الألسنة آية لا للمؤمنين، بل لغير المؤمنين" (١ كو ١٤: ٢٢).

كثيرًا ما تحدث **القديس باسيليوس الكبير** عن: "اهتم بذاتك"، ففي إحدى عظاته عن "اعرف نفسك" يقول: "نحن أنفسنا شيء، وما هو في حوزتنا أو ما يحيط بنا شيء آخر"[2].

---

[1] راجع ميمر ٩٦ على مدائح يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

[2] راجع للكاتب: القديس باسيليوس الكبير، ك ٣، باب ١٢، بند١١.

٣

ابن البرية المقدسة

مع كون يوحنا المعمدان مدينًا لوالديه التقيين، حين طلب جنود هيرودس قتله، وضعه والده في الهيكل، غالبًا على مذبح البخور، فجاء ملاك وانطلق به إلى البرية. فهو ابن البرية الذي خدمته الملائكة وقام بتربيته الروح. ليس من حوله إنسانٍ يخدمه أو يعزّيه في وحدته، غير أن وحدته وهبته أن يتذوّق عربون السماء. حوّلت رعاية الله له تجربته وهو رضيع إلى التمتع بعربون الحياة السماوية. قيل عنه: "أما الصبي فكان ينمو **ويتقوى بالروح وكان في البراري إلى يوم ظهوره لإسرائيل**" (لو ١: ٨٠).

❖ اعتقد أن زكريًّا كان يعلم أن يوحنا سوف يذهب ليعيش في البراري، وأنه لن يتمتَّع بعد ذلك بوجوده، وبالفعل "**كان في البراري إلى يوم ظهوره لإسرائيل**" (لو ١: ٨٠). موسى أيضًا عاش في البراري، لكن بعد هروبه من مصر وكان عمره أربعين عامًا... أما يوحنا فمنذ ولادته ذهب إلى البراري، هذا الذي قيل عنه أنه أعظم مواليد النساء، وقد استحق أن يُثقَّف بتربية ممتازة[1].

العلامة أوريجينوس

❖ قد يظن البعض أن في هذا مبالغة، إذ يوجَّه الحديث إلى طفلٍ ابن ثمانية أيام، لكننا نستطيع أن نُدرك أن هذا في الإمكان، إذ سمع وهو جنين صوت مريم قبْل ولادته. ولما كان يوحنا نبيًا، فإنَّ للأنبياء آذانًا أُخر يفتحها روح الله ولا يفتحها نُموّ الجسد. كان يوحنا قادرًا على الفهم، إذ سبق فركض بابتهاج في بطن أُمّه.

القدّيس أمبروسيوس

[1] *In Luc. Hom 10: 6, 7.*

٤

لست مستحقًا أن أحلّ سيور حذائه

مع اعتراف يوحنا أنه ليس مستحقًا أن ينحني ويحلّ سيور حذاء السيد المسيح، غير أنه خضع لأمر السيد أن يمد يده ويضعها على رأسه ليقوم بتعميده، هذا الذي لا تجسر القوات السماوية أن تتطلع عليه.

يقول **القدّيس كيرلس الكبير**:

[عَلَم يوحنا أن المسيح أمين لكل من يخدمه، فما على الخادم إلاّ أن يعلن الحق والصدق، إذ الفرق شاسع بين الخادم وسيّده، أي بين يوحنا والمسيح. لذلك يقول: "أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت لست أنا المسيح بل إني مُرسل أمامه" (يو ٣: ٢٨)، فحقًا أن يوحنا عظيم في رسالته وعظيم في شهادته، فقد كان رائع الجلال ككوكب الصباح الذي يعلن شروق الشمس من وراء الأفق.

أراد يوحنا أن يُثبت للملأ أنه دون سيّده مرتبة ومقامًا، فقال: "أنا أعمّدكم بماء، ولكن يأتي من هو أقوى منّي الذي لست أهلاً أن أحلّ سيور حذائه" (لو ٣: ١٦).

حقًا إن الفرق شاسع بين السيد المسيح ويوحنا، بل لا تصح المقارنة بينهما، ولذلك صدَق المعمدان المغبوط رغمًا عن سِمو فضيلته وكريم خلقه بأنه "غير أهل أن يحل سِيور حذائه"، لأنه إذا كانت القوَّات السمائيّة والعروش والسيرافيم المقدَّسة تقف حول عرش المسيح الإلهي تقدِّم له المجد والتسبيح، فمن من سكان الأرض يستطيع أن يقترب من الله؟! نعم يحب الله الإنسان فهو رؤوف به رحوم عليه، ولكن يجب ألا ننكر بأي حال من الأحوال بأننا لا شيء بالنسبة له، فنحن بشر ضعفاء جهلاء[1].]

لا يقدر أحد أن يحل سيور حذائه، أي يتعرف على سرّ تجسده. بالحقيقة كان مملوءً من الروح القدس الذي به تأهل أن يكون صديقًا عوض كونه خادمًا، لكنه يعجز عن التعرف على أسرار طبيعته الإلهية.

يقدّم لنا **القدّيس چيروم**[2] تفسيرًا آخر وهو أن يوحنا المعمدان لا يتجاسر أن يمد يده ليحل سيور حذاء سيّده، لأن السيّد يريد عروسه المترمِّلة ولا يرفضها، إذ جاء في الشريعة أن الوليّ الذي يرفض الأرملة كزوجة ليُقيم منها نسلاً للميّت يخلع نعليْه أمام شيوخ المدينة ويُعطيه لمن يَقبل الزواج منها، كما فعل وليّ راعوث (را ٤: ٧-٨). مسيحنا لن يخلع نعليْه ليعطيهما لأحد، إذ يوَد أن يقتنينا عروسًا له، ويشترينا بحبُّه ودمه المبذول.

---

[1] *Catena Aurea (John 1) .*

[2] *In Matt .8:11.*

٥

صوت صارخ

رآه إشعياء قبل ميلاده بأكثر من ٧٠٠ عامًا، فقال: "**صوت صارخ** في البرية، أعدوا طريق الربّ" (إش ٤٠: ٣). إنه صوت صارخ في برية هذا العالم، أما السيد المسيح فهو كلمة الله مخلّص العالم.

"أنا صوت صارخ في البرية" (يو ١: ٢٣)

وصفه إشعياء النبي، قائلاً: "صوت صارخ في البرّيّة، أعدّوا طريق الرب. قوِّموا في القفر سبيلاً لإلهنا (إش ٤٠: ٣). إنه الصوت الذي يسبق "الكلمة الإلهي"، وكما يقول **الآب غريغوريوس الكبير**: [تعرفون أن "الصوت" يُحدّ (أي له حدود) يصدر أولاً عندئذ تُسمع "الكلمة"، لهذا يُعلن يوحنا عن نفسه أنه "صوت" (محدود)، إذ هو يسبق "الكلمة" (غير المحدود). فبمجيئه أمام الرب دُعي "صوتًا"، وبخدمته سمع الناس "كلمة الرب". إنه يصرخ معلنًا: "اصنعوا سُبله مستقيمة"... إن طريق الرب للقلب يكون مستقيمًا متى استقبل بتواضعٍ كلماته للحق، ويكون مستقيمًا إن سلكنا في توافق مع وصاياه. لذلك قيل: "إن أحبّني أحد يحفظ كلامي ويحبّه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً" (يو ١٤: ٢٣). أمّا من يرفع قلبه بالكبرياء، ومن يلتهب بحُمّى الطمع، ومن يلوث نفسه بدنّس الشهوة، يغلق باب قلبه ضدّ مدخل الحق، ولئلا يقتني الرب المدخل، يُحكم الإغلاق بالعادات الشرّيرة[1].] يقول **العلامة أوريجينوس**[2] أن الصوت شهد للكلمة، مقدمًا ست شهادات:

١. شهد عن عظمته، إذ يأتي بعده مع أنه الأزلي السابق له، وأنه واهب النعم والمُخبر عن الآب (يو ١: ١٥ – ١٨). يرى أن هذه العبارات كلها هي شهادة القديس يوحنا السابق وليس كما يظن البعض أن جزءً منها هو شهادة الإنجيلي يوحنا.

٢. **شهادته أمام إرسالية الكهنة** واللاويين القادمين من أورشليم (يو١ :١٩–٢٧).

٣. للمرة الثالثة **يشهد عن عظمة المسيح** موضحًا أنه غير مستحق أن يحل سيور حذائه (يو ١: ٢٦–٢٧) وهو قائم في وسطهم ولم يعرفوه.

٤. شهادته في اليوم التالي أنه **حمل الله الذي يرفع خطية العالم** (يو ١: ٢٩).

---

[1] *PL 1099 – 1103.*

[2] *Commentary on John, Book 2:212 – 218.*

٥. شهادته له بعد أن **رأى الروح نازلاً ومستقرًا عليه** (يو ١: ٣٢-٣٤).

٦. للمرة السادسة **يشهد أمام اثنين من تلاميذه** أنه حمل الله (يو ١: ٣٥-٣٦).

هذا الصوت الصارخ في البرية هو صوت القلب قبل أن يكون صوت الفم الجسماني، وكما يقول: العلامة أوريجينوس: [قال الرب لموسى: "مالك تصرخ إليَّ"؟ (خر ١٤: ١٥) بينما لم يصرخ بصوتٍ عالٍ، وإنما صرخ خلال الصلاة بصوت عالٍ، بذاك الصوت الذي يسمعه الله وحده. لهذا يقول داود أيضًا: "أنا صرخت إلى الرب بصوتي، والرب سمع لي" (مز ١٢٠: ١)[1].]

ويقول **القديس غريغوريوس النيسي:** [يقدم الرسول بولس برهانًا على أن السيد المسيح يتكلم بداخله، وبواسطته أصبح صوته عذبًا (٢ كو ١٣:٣،٢). قدم جميع الأنبياء أنفسهم كأعضاء الصوت للروح القدس وأصبحت أصواتهم عذبة بتثبيت العسل المقدس في حناجرهم[2]. يأكل الملوك والشعوب العسل لما له من فوائد صحية... لكل عضوٍ من الأعضاء أهميته الخاصة، ولا يقلل من هذه الأهمية ارتفاع أهمية أحد الأعضاء على الأعضاء الأخرى[3].]

هب لنا يا رب أن نكون صوتك الصارخ، تسمعه وتُسر به، ويسمعه البشر فيتعرفون عليك!

يوحنا الصوت والمسيح الكلمة

ليس من وجه للمقارنة بين الصوت الذي ندركه بسماع الأذن والكلمة التي هي مخفية في العقل. هكذا ليس من مقارنة بين القديس يوحنا المعمدان وربّ المجد يسوع.

١. عمل الصوت المسموع هو الشهادة للكلمة التي تسمو عن عقل الإنسان. وقد أبرز **العلامة أوريجينوس** ست شهادات قام بها القديس يوحنا المعمدان عن الكلمة حمل الله كما رأينا.

٢. الصوت محدود بالكلمات التي تصدر من الفم، وتنطلق إلى الآذان.

٣. الصوت يتبدد، وأما الكلمة فقائمة في العقل. هكذا يوحنا له بداية وله نهاية، بدأ في أحشاء أمه، وانتهى بذبحه من أجل هيروديا.

٤. لم يحلّ يوحنا في البتول حيث الأختام محفوظة، وأما تجسد كلمة الله فتمّ في البتول وبقي ختم البتولية مختومًا لم ينفك.

---

[1] *Commentary on John, Book 6:101.*

[2] عندما يتحدث الأنبياء بكلمة الله، يسمع المستمعون أصواتهم، ويدركون ما وراء الصوت المسموع عذوبة كلمة الله صادرة من حناجرهم. شتان ما بين صوت الأنبياء المسموع وبين ما يحمله الصوت وهو كلمة الله الحلوة كالعسل.

[3] نشيد الأناشيد للقديس غريغوريوس أسقف نيصص، تعريب الدكتور جورج نوّار، عظة ١٤.

٥. جاء الصوت ثمرة للزواج، وأما الكلمة فليس من زرع بشرٍ.

❖ الصوت محدَّد وموضعه يوجد بين الفم والأذن ويتبدد، لأنه ليس موجودًا في جوهر الكلمة.
وهكذا فإن بداية يوحنا ونهايته معروفة وزمنه ليس منذ أزمنة العالم.
بدايته صارت من اليصابات بنت اللاويين، ونهايته أيضًا حيث رقصت (ابنة) هيروديا.
الروح القدس صار له مربيًا، وركض وبدأ وانتهى ومضى وقته في مسيرة طريقه.
وكما تصير بداية للصوت من الشفتين وتصير نهايته حين يصل إلى باب الأذن...
هكذا أيضًا تحل الكلمة في الرسالة، وتصير محفوظة تحت الأختام في السجلات.
لا يقدر أحد أن يحبس الصوت في الرسالة، ولم يحل يوحنا في البتول، لأنها كانت مختومة.
ربنا الكلمة ابن الله حلّ في الشابة، وكان خبره محفوظًا تحت أختام البتولية.
جاء الصوت من الزواج، أي ابن اللاويين لتجليه، وأرسله أمامه إلى قفر اليهودية.
وكما أن موضع الصوت هو موضع فارغ، هكذا أيضًا يوحنا هو في موضع مقفر[١].

القديس مار يعقوب السروجي

"لم يكن هو النور بل ليشهد للنور" [٨]

لم يكن السيد المسيح محتاجًا إلى شهادة يوحنا المعمدان، فشهادته لا تضيف للسيد المسيح مجدًا، ولا تزيد من الثقة فيه، إنما كان البشر محتاجين لشهادته. إنه السراج الذي يضيء لإخوته بني البشر، ولم يكن هو نفسه النور الحقيقي. فالنور ليس من طبيعة السراج، إنما من المسيح نور العالم.

فالقديسون لا ينيرون من أنفسهم بل من المسيح العامل فيهم. هكذا يليق بالمؤمن أن يكون سراجًا ينير بشمس البرّ الساكن فيه؛ ولا يتكلم من نفسه بل بمرسله.

❖ قد يقول قائل: ما معنى هذا؟ هل يشهد العبد لسيده؟!... أقول له ما قاله المسيح لليهود: "وأنا لا أقبل شهادة من إنسان" (يو ٥: ٣٤). وإن قلت: فإن كان المسيح لا يحتاج إلى هذه الشهادة، فلِمَ أرسل الله يوحنا؟! أقول لك: لم يرسل يوحنا لأن المسيح محتاج إلى شهادته، فهذا تجديف خطير. فلماذا إذن؟ يخبرنا يوحنا نفسه، إذ يقول: "لكي يؤمن الكل بواسطته"... لا تظن أن السبب أن يوحنا المعمدان حمل الشهادة لكي يضيف شيئًا إلى الثقة في سيده. لا، وإنما لكي يؤمن أولئك الذين من

[١] راجع ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

ذات طبقته (البشر)[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ فضل المعمدان أنه عاش في البرية بعيدًا عن ترف المدن، وأعلن عن عزمٍ ثابتٍ في ممارسة الفضيلة، وارتقى إلى قمة البرّ الذي يمكن أن يصل إليه إنسان، مما جعل البعض يندهش من أسلوب حياته، بل أن البعض تخيّلوا أنه هو المسيح... **تخيّل البعض أنه هو النور نفسه.**

❖ قيل عن يوحنا المعمدان: "أقمته سراجًا لمسيحي" (مز ١٣٢:١٧). مع أنه يُقال عن القديسين أنهم نور... لكننا لا نجهل النعمة التي نالوها من "النور". لأن النور في السراج، وليس من السراج، ولا نور القديسين هو من القديسين، بل باستنارة الحق صاروا "نورًا في العالم، متمسكين بكلمة الحياة" (في ٢:١٥-١٦)[2].

القديس كيرلس الكبير

ملاك الرب يهيئ الطريق أمامه

رآه ملاخي النبي، فقال على لسان الربّ: "هأنذا أُرسل **ملاكي**، فيهيئ الطريق أمامي" (ملا ٣: ١).

❖ إذا سمعت أن يوحنا مُرسل من الله، فلا تظن أنه يتكلم بأقواله، إنما يتكلم بأقوال مرسله، ولهذا سمى ملاكًا (ملا ٣: ١)، وفضيلة الملاك ألا يقول قولاً من ذاته[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ شاع كلام مستتر عند البعض بأن يوحنا المعمدان لم يكن إنسانًا حقيقيًا، بل هو أحد الملائكة القديسين في السماء، استخدم جسدًا، وأرسله الله لكي يعظ الناس. تعتمد هذه الخرافة على عدم إدراك لما قاله الله: "ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ الطريق أمامك" (مت ١١:١٠؛ ملا ٣:١). وخطأ أولئك الذين ابتعدوا عن الحق وهو عدم فهمهم لمعنى كلمة "ملاك". فمعناها خادم أو رسول، دون تحديد لحقيقة جوهر هذا الخادم.

القديس كيرلس الكبير

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 6:1.*

[2] *Cyril of Alexandria. (1874). Commentary on the Gospel according to S. John (Vol. 1, pp. 73–74). Oxford; London: James Parker & Co.; Rivingtons*

[3] *Homilies on St. John, Hom. 6:1.*

❖ هكذا كان يوحنا نورًا، لكنه لم يكن النور الحقيقي، لأنه لو لم يستنر لكان فيه ظلمة، لكنه بالاستنارة صار نورًا[1].

القديس أغسطينوس

[1] *St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 2:6.*

٦

هذا هو إيليّا المزمع أن يأتي (مت ١١: ١٤)

يقول **العلاّمة أوريجينوس:** [إنه يوحنا وليس هو إيليّا في نفس الوقت، ليس شخصه، إذ لم يعرف عن نفسه أنه مارس حياة شخصيّة سابقة. بهذا يؤكّد القدّيس يوحنا المعمدان رفضه لفكره تناسخ الأرواح، بمعنى إعادة تجسّدها، لكنّه جاء يحمل ذات الفكر والاتّجاه لإيليّا النبي.]

يقول **البابا غريغوريوس (الكبير):** [يقول الملاك لزكريّا بخصوص يوحنا: "ويتقدّم أمامه بروح إيليّا وقوّته" (لو ١: ١٧). كما أن إيليّا يسبق المجيء الثاني، فإن يوحنا يسبق المجيء الأول. وكما أن إيليّا هو السابق للديّان القادم، هكذا يوحنا هو السابق للمخلّص الآن. إذن فيوحنا هو إيليّا في الروح، وليس في شخصه[١].]

❖ كان ايليا الثاني الذي جاء ليهيئ الطريق، وشرع يخاصم بغضبٍ ضد إيزابل.
لأنه لم يقدر أن يرى الإثم ويسكت، ولم يترك الإثم يثبت بجواره.
بتواضعهِ لم يكن يتكلم مع الخطاة، ولم يكن يصبر لينظر إليه فعلة الإثم.
سمى الفريسيين والصدوقيين أولاد الأفاعي، وبقسوته عليهم أتوا إلى التوبة.
لم يكن يحابي الرؤساء والسلاطين، لأنه لم يقدر أن يرى الإثم ولا يزجره.
هدد بني الإثم بالنار مثل ايليا، وأرعبهم بقصاص اللهيب.
حثهم ليعطوا ثمار التوبة، لئلا يحترقوا كالأخشاب بالنار من قبل العدالة.
كان فمه مفتوحًا، وصوته قويًا بالتوبيخ، ويزجر الأشرار ليبعدهم عن الشرور.
كان لابسًا الغيرة ضد الإثم بكل أشكاله، وأرشد ووبخ كل المراتب بقوةٍ.
وبخ الملوك وجهًا لوجه مثل ايليا، وبذكائه احتقرهم وأخجلهم.
بتعليمه أصبح موبخًا للملوك وللكهنة، وعندما كان يعلم كان الصغار والكبار متساوين عنده[٢].

القديس مار يعقوب السروجي

---

[1] *PL 74, 1099-1103.*

[٢] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

٧

ينبغي أن ذلك يزيد وأنِّي أنا أنقص (يو ٣: ٣٠)

رأى يوحنا سرّ الثالوث القدوس، حين طلب منه رب المجد أن يعمده، قائلاً له: "اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمّل كل برّ" (مت ٣: ١٥). أمام ما تمتع به يوحنا في لحظات عماد السيد حسب كأنه لم يكن يعرفه من قبل (يو ١: ٣١). صوت الآب، وظهور الروح القدس وعمل الابن المتجسد الذي سحق رؤوس التنين تحت قدميه في نهر الأردن، لقد دُهش السمائيون أنفسهم. شعر أنهم كمن يترنمون معًا: "هوذا الكل قد صار جديدًا" (٢ كو ٥: ١٧).

ما كان يشغله على الدوام أن يتتلمذ كل شخصٍ للسيد المسيح. ففي اليوم التالي لعماد السيد، كان واقفًا ومعه اثنان من تلاميذه، وكان كل الحديث عن بركات الربّ الذي يعلن أسراره الإلهية. إذ نظر إلى يسوع ماشيًا، قال لهما: "هوذا حمل الله" (يو ١: ٣٦).

كم كانت مسرته أن يقدم كل تلاميذه له ليتتلمذوا على يديه، ويختبروا خلاصه العجيب. لم يشغله أن يجمع حوله الألاف، بل كما قال لتلاميذه إنه ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص (يو ٣: ٣٠).

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [لم يقصد يوحنا بهذه المقارنة إثبات أن المسيح أعظم منه، فليس من وجه للمقارنة بين الله وإنسان... لم يشأ يوحنا أن يقارن نفسه بالمسيح، إذ قال: "لست مستحقًا أن أحلّ سِيور حذائه"... ربَّما أراد القدِّيس يوحنا أن ينقص من شأن الشعب اليهودي بقوله: "ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص" (يو ٣: ٣٠)، كان ينبغي أن ينقص الشعب اليهودي حتى يزداد الشعب المسيحي في المسيح.]

يشرح **القدِّيس كيرلس الكبير** هذه العبارة، قائلاً:

[إننا لا نقول إن المعمدان انحطَّ مقامه في الوقت الذي زاد فيه مجد المسيح حيث التفَّ حوله عدد كبير من الناس، ولكن يُراد بنقص يوحنا وزيادة المسيح أن يوحنا كان إنسانًا فلابد من أن يصل إلى درجة ما بعدها من مزيد، أما المسيح فهو إله متأنِّس فلا حد لنموُّه ولا نهاية لعظمته. لذلك يقول المعمدان: "**ينبغي أن ذلك يزيد وأنِّي أنا أنقص**". إن كل من وقف في مستوى واحد ينقص، وذلك بالنسبة لمن لا يقف أمامه عائق عن النمو والتقدُّم.

وحتى يُثبِت المعمدان أنه على حقٍ في قوله هذا، أشار إلى لاهوت المسيح، وبرهن لهم أنه لابد

من أن يفوق جميع الناس، إذ قال: "الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع، والذي من الأرض هو أرضي، ومن الأرض يتكلَّم" (يو ٣: ٣١). من الذي أتى من فوق، ومن ذا الذي يفوق جميع الناس؟ من الواضح هو كلمة الله المتجسِّد، هو مثل الآب ومساوٍ له في الجوهر، ونظرًا لمحبَّته شاء فنزل وتواضع ليصير مثلنا. فالمسيح إذن يفوق كل من على الأرض، ولما كان المعمدان أحد سكان الأرض، ويتَّفق معهم في الإنسانيّة، لزم أن يفوقه المسيح الإله.

لا ننكر أن يوحنا كان حميد الخصال. منقطع النظير فضلاً ونُبلاً، بلغ درجة عظيمة في البرّ والصلاح يستحق عليها المدح والثناء، إذ وصفه السيِّد بالقول المأثور: "لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان" (مت ١١: ١١) ولكن رغمًا عن كل هذا لم يكن المعمدان من فوق، بل كان أرضيًا مثلنا."[١]

[١] عظة ٣٧.

٨

معمودية يوحنا

عمَّد يوحنا بماء للتوبة، لكن السيد يعمد ليهبنا البنوة للآب (يو ١: ٢٦، ٣٣؛ مت ٣: ١١).

يوحنا ابن كاهن كان يقدم ذبائح حيوانية، أما ذاك فرئيس الكهنة السماوي، حمل الله الذي يحمل خطية العالم.

يوحنا صديق الكنيسة العروس التي تُخطب من الماء والروح على مثال رفقة بنت أهل حاران.

يقول **القدّيس أمبروسيوس:** [كثيرون يتطلّعون إلى يوحنا كرمز للناموس، بكونه يقدر أن ينتهر الخطيّة، لكنّه لا يقدر أن يغفرها[1].]

معمودية يوحنا هيأت الطريق لمعمودية المسيح

يُدعى القديس يوحنا السابق إذ جاء **سابقًا** للمسيَّا **يُعد له الطريق**، كما يُدعى الصابغ، أي المعمدان.

١. لقد حُبل به قبل أن تحبل القديسة مريم بالمسيَّا الذي تجسد منها. كان سابقًا في حبله ليشهد له وهو جنين في بطن أمه.

٢. كان سابقًا له في العماد، لكنه كان يعمد بالماء أجساد التائبين، ليهيئ الطريق لمعمودية السيد المسيح بالماء والروح (يو ٣: ٥).

❖ كان يوحنا يعمدّ بالماء لا بالروح القدس، فهي عاجزة عن غفران الخطايا، تغسل أجساد من يعتمدون بالماء، أمّا نفوسهم فلا تقدر أن تغسلها. إذن لماذا كان يوحنا يعمّد؟... إنه في ميلاده كان سابقًا لمن يُولد، وبالتعميد كان سابقًا للرب الذي يعمّد، وبكرازته صار سابقًا للمسيح![2]

الأب غريغوريوس (الكبير)

الأنواع المختلفة للمعموديّة

❖ لنعالج باختصار الأنواع المختلفة للمعموديّات:

معمودية **موسى** كان يعمدّ لكن في الماء، في البحر تحت السحابة (١ كو ١٠: ٢)، فعل هذا

---

[1] *Catena Aurea (Luke 3).*

[2] *PL 74:1099- 1103.*

بطريقة رمزيّة.

يوحنا أيضًا عمّد، حقًا ليس بطقس اليهود، وليس فقط في الماء وإنما للتوبة لمغفرة الخطايا (مر ١ : ٤)، لكنها لم تكن بطريقة روحيّة كاملة، إذ لم يضف أنها "في الروح".

يسوع عمّد ولكن في الروح، وهذا هو الكمال!

توجد أيضًا معموديّة رابعة، تتم **بالاستشهاد والدم**، وهي مكرّمة جدًا عن الباقين...

كما توجد معموديّة خامسة وهي عاملة بالأكثر، **معموديّة الدموع**، حيث كان داود يُعوّم كل ليلة سريره، ويغسل فراشه بدموعه (مز ٦: ٦)[1].

القدّيس غريغوريوس النزينزي

الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه" (مت ١١: ١١)

تجسد ابن الله الوحيد وصار إنسانًا، لكي ينقلنا من البنوة لآدم إلى البنوة لله الآب. هذا ما كان يعتز به الرسول بولس، قائلاً: "إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضًا للخوف، بل أخذتم **روح التبني** الذي به نصرخ يا أبّا الآب" (رو ٨: ١٥).مع ما نلناه من عطايا رائعة في العهد الجديد، يُحسب كل واحدٍ منا "الأصغر في ملكوت السماوات". هذه العطايا لم يتمتع بها رجال العهد القديم حتى القديس يوحنا المعمدان نفسه، لأنه لم يكن بعد قد تم الفداء بالصليب.

للقديس أغسطينوس تفسير آخر وهو أن الأصغر في الطغمات السمائية في ملكوت السماوات هو الملاك، ويُحسب أعظم من يوحنا، بهذا مع ما أعلنه السيد المسيح عن سمو شخصية القديس يوحنا المعمدان، فإن الملائكة كأصغر الطغمات السماوية عظماء للغاية بالنسبة له. بهذا يلهب الربّ قلوبنا شوقًا للقاء مع السمائيين لنتمتع بهذا البهاء العجيب!

❖ كان يوحنا كالآخرين الذين سبقوه تُنسب ولادته إلى امرأة، أمّا أولئك الذين قبلوا الإيمان بالمسيح فليسوا أبناء نساء، بل أبناء الله، كقول الإنجيلي الحكيم: "وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله..." (يو ١: ١١-١٢). لقد أصبحنا أبناء الله العليّ، "مولودين ثانية لا من زرع يفنى، بل ممّا لا يفنى بكلمة الله الحيّة الباقية إلى الأبد" (١ بط ١: ٢٣). إذن كل من ولد لا من زرع فانٍ بل من كلمة الله الباقية يفوق المولود من امرأة. لاحظوا أنه قبيل قيامة المسيح من الأموات وصعوده إلى السماء لم يوجد بين الناس روح التبنّي ولا دُعي أحد ابنًا لله (يو ٧: ٣٩)... إذن لا

[1] *Oratio 39.*

يُنقِص المسيح من مكانة الأنبياء... وإنما أراد أن يظهر ما في الحياة الإنجيليّة من سموّ أعظم بكثير من سموّ الحياة الناموسيّة[1].

القدّيس كيرلّس الكبير

[1] *On Luke, Ser 38.*

٩

مقاومة إبليس له

ارتعب الشيطان منه وهو يراه كجنينٍ يرقص متهللاً في بطن أمه العجوز ويكرز لها بأن الذي في أحشاء القديسة مريم هو المسيا رب المجد، فانفتح قلبها ولسانها، وسبحت: "من أين لي هذا أن تأتي أم ربي إليّ" (لو ١: ٤٣). حقًا لم نسمع قط عن نبيٍ أو تلميذٍ أو رسولٍ أو تقيٍ كرز وهو بعد جنين! إنها نعمة الله الفائقة التي عملت فيه، ولا زالت تعمل وستعمل فيه حتى في الفردوس!

خطة شيطانية تُقدم لقلب هيروديا

همس إبليس في قلب هيروديا، قائلاً: لقد دخلتُ مع قوات الظلمة إلى وليمة هيرودس وقد التف حوله رؤساء القوات والعظماء ورجال القصر وتبارى الكل في شرب الخمر بلا حدود، وضربتُ قلوبهم بسهام الشهوة والشرّ. حان الأوان لتغلقي فم يوحنا العبراني الذي ينتهرك لأجل زناكِ مع هيرودس الملك أخ زوجك. حان الأوان للانتقام ممن جعلك أضحوكة في بلد الجليليين. لترقص ابنتك، وتطلب رأس هذا العبراني الذي سجَّس فكر الملك بتوبيخاته.

القدّيس يوحنا في السجن يرمز لتقييد الناموس

يتميز القديس يوحنا المعمدان عن غيره من الأنبياء بالآتي:

أ. تنبأ القديس يوحنا عن السيد المسيح بلغة الفرح، إذ ركض مبتهجًا، فأدركت والدته أليصابات بأن القديسة مريم هي والدة الإله.

ب. كان يوحنا يرمز للناموس الذي كانت غايته هو "المسيح للبرّ" (رو ١٠: ٤)، لكي يؤمن الذين تحت الناموس به ويعبروا إلى عهد النعمة. هكذا أرسل يوحنا وهو في السجن تلميذين يسألان السيد المسيح إن كان هو المسيَّا أم ينتظروا آخر (لو ٧: ١٩)، لا لأنه كان يشك فيه، وإنما كي يسمع التلميذان من السيد المسيح نفسه، حتى باستشهاد يوحنا يلتصق تلاميذه بيسوع المسيح.

ج. سُجن يوحنا كي لا يتكلم، وسجن الكثيرون الناموس كي لا يسمعوا له ويلتصقوا بالمسيَّا المخلّص.

❖ كنبي تنبأ خلال حياته بسجنه، فكان رمزًا للناموس الصامت (المسجون).

جاء الناموس ليخبر عن المسيح وغفران الخطايا واعدًا البشريّة بملكوت السماوات، الأمر الذي صنعه يوحنا ليحقّق هدف الناموس. لكن الناموس (في شخص يوحنا) صمت، إذ سجنه الأشرار، وصار كمن في قيود السجن حتى لا يعرف أحد المسيح...

بعث الناموس (يُرمز له بيوحنا) برسله لينظروا أعمال الإنجيل، ويتأمّلوا حقيقة الإيمان خلال نور هذه العجائب. وبهذا فإن الناموس الذي أُحيط بعنف الخطاة يتبرّر بفهم الحرّية التي حرّرنا بها المسيح (غل ٤: ٣١). بهذا لم يكن يوحنا يقصد معالجة جهل خاص به، إنّما يعالج جهل تلاميذه، فقد سبق فأعلن بنفسه أن المسيح يأتي لمغفرة الخطايا. والآن يرسل اثنين من تلاميذ إلى المسيح لينظروا أعماله، فتثبت تعاليم المسيح لهم فلا يكرزون إلا به، غير متطلّعين إلى مسيح آخر[١].

القدّيس هيلاري أسقف بواتييه

❖ كان من الطبيعي أن هذا الناموس الذي يتكلّم عن المسيح وقد صار سجينًا في قلوب المؤمنين ووُضع في الحبس أن يفتقر إلى النور، فقد قاسى عذابات خلف قضبان عدم الفهم، لهذا فهو لا يقدر أن يسير إلى النهاية كشاهدٍ للمقاصد الإلهيّة ما لم تسنده بشارة الإنجيل[٢].

القدّيس أمبروسيوس

❖ خافت الخطيئة من البار الذي كان يطاردها، فأدخلته إلى الحبس لتستهزئ به.

نصبت الشراك، وطمرت الفخاخ وسجنته، ولم تكن تسمع صوته العالي، لأنها كانت تبغضه.

سعى الزنا وسجن البتولية، لئلا يسمع منها صوت التعليم.

فجور آل هيرودس كشف عن وجهه، وقداسة آل يوحنا قد تغطت.

تجمعت كل الأرواح الكاذبة لتُخفى ذاك المصباح الذي كان موجودًا في القفر.

هبت العواصف من كل الجهات على النيّر، وأدخلته وحبسته لتطفئه في الظلمات...

حسد الشيطان الصوت الصارخ في قفر اليهودية، لأنه كان يفضح إثم البلد ويوبخه[٣].

القدّيس مار يعقوب السروجي

ارسالية من السجن إلى السيد المسيح

---

[1] *PL 9: 978.*

[٢] تفسير لو ٧: ١٨-٣٥ (ترجمة مدام عايدة حنا بسطا).

[٣] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

"أمّا يوحنا فلما سمع في السجن عن أعمال المسيح، أرسل اثنين من تلاميذه، وقال له: أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟!" (مت ١١: ٢-٣) أدرك القدّيس يوحنا المعمدان أن انتقاله قد اقترب، وأن رسالته أوشكت أن تنتهي تمامًا، فبعث باثنين من تلاميذه للسيّد يسألاه ليس عن تشكّك في أمره، وإنما ليقدّم لتلميذيه الفرصة أن يلمسا بنفسيهما عمل السيّد المسيح ويتعلقا به، فينجذبا إليه ويجذبا بقيّة إخوتهما تلاميذ يوحنا ليسيروا وراءه.

❖ تظاهر عمدًا بالجهل لا ليتعلّم، فقد كان مدركًا أسرار التجسّد، وإنما تجاهل ليحدِّث تلاميذه عن تفوُّق السيّد عليه، ويقنعهم بما ورد في الكتاب المقدّس (النبوات) أنه هو الله قد أتى متجسّدًا، وأن جميع الناس خدّام له يمهدون الطريق لقدومه، كقول المرتّل: "**مبارك الآتي باسم الرب**"[1].

القدّيس كيرلّس الكبير

❖ خصص (يوحنا) لنفسه تلاميذ ليكونوا شهودًا للمسيح... وكان هؤلاء يقدِّرون معلّمهم تقديرًا عظيمًا، وسمعوا منه شهادته عنه وتعجّبوا. وإذ اقترب موت يوحنا أراد تثبيتهم في الإيمان بالمسيح نفسه... فقال لتلميذين منهم: "**اذهبا واسألاه**"... لا لأنّني أشك فيه، وإنما لأجل تعليمكما. اسمعا منه ما أخبرتكما به عنه، لقد سمعتما منّي عنه أنا الرسول، ليثبتكم الديان (يسوع نفسه) فيه... أما قول المسيح فكان لأجل تعليمهما: "العمي يبصرون"... كأنه يقول: لقد رأيتماني فلتعرفاني! لقد رأيتما أعمالي، إذن فلتعرفا صانعها... وطوبى لمن لا يعثر فيّ، وهذا أقوله لأجلكم وليس لأجل يوحنا[2].

القدّيس أغسطينوس

يرى **القدّيس يوحنا الذهبي الفم**[3] أن القدّيس يوحنا المعمدان أرسل تلميذيه للسيّد المسيح لأن الغيرة دبّت في تلاميذه (يو ٣: ٢٦). يروي لنا إنجيل معلّمنا متّى أن تلاميذ يوحنا جاءوا إلى السيّد قائلين: "لماذا نصوم نحن والفرّيسيّون كثيرًا وأما تلاميذك فلا يصومون؟" (مت ٩: ١٤). وقد أخذ **القدّيس كيرلّس الكبير**[4] بذات الرأي.

شهادة السيّد المسيح ليوحنا (مت ١١: ٧-٨)

لم يتحدّث السيّد المسيح عن يوحنا المعمدان إلا بعد أن رحل تلميذي يوحنا، كيلا يبدو متملقًا له.

---

[1] *Comm. on Luke, Sermon 37.*
[2] *Ser. on N. T. , hom 16: 3,4*
[3] *In Matt. hom 37.*
[4] *Com. on Luke, Ser 37.*

هل كان يوحنا قصبة تحرّكها الريح؟

يقول **القدّيس أغسطينوس:** [لم يكن يوحنا قصبة تحرّكها الريح، لأنه لم يكن محمولاً بكل ريح تعليم[1].]

❖ **لكن ماذا خرجتم لتنظروا، إإنسانًا لابسًا ثيابًا ناعمة، هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك" (مت ١١: ٨).** فيوحنا كان يرتدي لباسًا خشنًا، إذ كان رداؤه من شعر الإبل.

"لكن ماذا خرجتم لتنظروا، أنبيًا؟ نعم أقول لكم، وأفضل من نبي" (مت ١١: ٩). لماذا كان يوحنا أفضل من نبي؟ لأن الأنبياء تنبّأوا عن مجيء الرب، واشتهوا أن يروه، فلم يستطيعوا، أمّا هو فنال ما طلبوه. لقد رأى الرب وأشار إليه بإصبعه، قائلاً: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطيّة العالم" (يو١: ٢٩)... بهذا قدّم يوحنا شهادة صادقة عن المسيح، كما قدّم المسيح شهادة عنه إذ قال: "لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه" (مت ١١: ١١). إنه الأصغر من جهة الزمن، وإن كان الأعظم في الكرامة... فيوحنا عظيم جدًا بين البشر، الذين ليس فيهم من هو أعظم منه سوى المسيح!

ويقصد بالأصغر في ملكوت السماوات، أي الأصغر بين الملائكة، فالأصغر بين السمائيّين أعظم من يوحنا. بهذا يكون قد عرض الرب صورة عن عظمة ملكوت السماوات ليشوّقنا إليه، واضعًا أمام أعيننا مدينة ينبغي أن نشتهي السكنى فيها[2].

القدّيس أغسطينوس

❖ ماذا يقصد **بالقصبة** إلا النفس البشريّة المُحبّة للعالم؟ هذه التي إن لمسها أي مديح أو ذمّ تنحرف في الحال عن الطريق الذي تريده. فإن وُجد ريح مديح يصدر عن فم بشري يلاطفها، تفرح وترتفع ثم تنحني في شعور بالجميل. وإذ تهبّ ريح ذمّ من نفس المصدر الذي قدّم نسمات المديح تنحني للمرة الأخرى من الجانب الآخر وتخنع لقوة العاصفة. أمّا يوحنا فلم يكن بالقصبة التي تحرّكها الريح، فلا يتملّقه المديح ولا يغضبه الذمّ؛ لا يرفعه النجاح ولا تطرحه المحنة... إنّما كان إنسانًا لا يتأثّر بالظروف لينحرف عن طريقه... ليتنا نحتفظ بنفس ثابتة بين رياح ألسنة الناس المتغيّرة فلا الذم يثيرنا للغضب، ولا النجاح يحرّكنا لمنح عطايا ضارة[3].

القدّيس غريغوريوس (الكبير)

---

[1] *Ser. on N. T. 16:2.*
[2] *Ser. on N. T. 16:2.*
[3] *PL 76: 1095-99.*

أصحاب الثياب الناعمة

يقول السيد المسيح: "هوذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك" (مت ١١: ٨).

إن كان الجسد الذي ترتديه النفس يُحسب ثوبها ترتديه وتختفي فيه، فإن الجسد الناعم هو الجسد المُدلل، كل ما يشغله الأكل والشرب واللهو، دون اعتبار للمجد الذي يتمتع به الجسد عند القيامة. يقول الرسول: "وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضًا صورة السماوي" (١ كو ١٥: ٤٩).

❖ **الثياب** تعني سرّيًا الجسد الذي تلبسه النفس، فيكون ناعمًا خلال الترف والخلاعة. أمّا "**الملوك**" فهذا **الاسم** (هنا) يخصّ الملائكة الساقطين، الذين يسيطرون على الناس كسلاطين للعالم. هؤلاء يلبسون الثياب المترفة ويسكنون بيوت الملوك، بمعنى أن من كانت أجسادهم منحلّة وهالكة خلال الخلاعة، هم مساكن للشيّاطين، التي تختار هذه المواضع كسكنى لهم تناسب تدابيرهم وأعمالهم الشرّيرة[1].

القدّيس هيلاري أسقف بواتييه

❖ لم يلبس يوحنا الثياب الناعمة، لأنه لم يتغاضَ عن الخطيّة، متملّقًا السالكين فيها، بل بالأحرى وبّخهم بقسوة، بكلمات مرّة، قائلاً: "يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ " (لو ٣: ٧). يقول سليمان أيضًا: "كلام الحكماء كمهاميز (عصا في رأسها حديدة تنخس بها البهائم) وكمسامير منغرزة" (جا ١٢: ١١)، فلا تداهن غباوة الخطاة بل تجرحها[2].

الأب غريغوريوس (الكبير)

هيرودس وصوت يوحنا المُرهِب!

قيل: "في ذلك الوقت سمع هيرودس رئيس الربع خبر يسوع. فقال لغلمانه: **هذا هو يوحنا المعمدان. قد قام من الأموات، ولذلك تُعمل به القوات**" (مت ١٤: ١-٢).

كان هيرودس قد قتل القدّيس يوحنا المعمدان، الصوت المُرهِب، الذي أعلن الحق، مانعًا زواجه من هيروديّا امرأة أخيه فيلبس. فبحسب الشريعة لم يكن ممكنًا للإنسان أن يتزوّج امرأة أخيه (لا ١٨: ١٦) إلا إذا كان أخوه قد مات ولم تنجب له امرأته، عندئذ يتزوّجها الأخ ليس اشتياقًا إليها، وإنما ليُقيم لأخيه الميّت نسلاً. لقد كان خطأ هيرودس أنه أراد الزواج بامرأة أخيه الذي على ما يُظن كان حيًا[3].

---

[1] *PL 9: 978.*
[2] *PL 76: 1095-99.*
[3] *In Matt. 2:21.*

قتل هيرودس القدّيس يوحنا المعمدان ليكتم صوته، لكن الصوت لم يتوقّف، بل كان يزداد صراخًا في ذهن هيرودس. لهذا إذ سمع هيرودس عن يسوع المسيح فكَّر في الحال أنه يوحنا المعمدان قام من الأموات يصنع القوات. كان هيرودس بلا سلام، لأن الخطيّة تفقد الإنسان شبعه الداخلي!

يروي لنا الإنجيلي قصّة استشهاد القدّيس يوحنا المعمدان على يديّ هيرودس فيقول: "فإن هيرودس كان قد أمسك يوحنا وأوْثقه، وطرحه في سجنٍ، من أجل هيروديّا امرأة فيلبس أخيه. لأن يوحنا كان يقول له: لا يحلّ لك أن تكون لك" (مت ١٤: ٣-٤).

كان هيرودس صاحب السلطان يظن أنه قادر أن يكتم صوت الحق، ويحبسه بسجن يوحنا، مشتاقًا أن يقتله، فيُبيد الصوت تمامًا، لكن الحبس كان يُزيد الصوت قوّة، والموت يختم على الصوت بختم الأبديّة، فصار موضوع كرازة الأجيال. يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لقد سُمع صوت يوحنا بأكثر علوًا بعد هذه الأمور[1].]

مقارنة بين القديس يوحنا المعمدان وهيرودس

أولاً: كان **كلاهما شخصية عامة**، لكن يوحنا يؤدي عمله من واقع أعماقه الداخلية الملتهبة حبًا نحو الآخرين وشوقًا لخلاصهم، وأما الثاني فيمارس عمله كابن هيرودس الكبير ورث نصيبًا من مملكته يحمل في قلبه كبرياء وأنانية، يود أن يتمركز الكل حوله لتمجيده وخدمته.

ثانيًا: **تعرف الاثنان على السيد المسيح**، الأول بالإيمان وهو في أحشاء أمه والتقى به، فتهلل وفرح حين زارت القديسة مريم اليصابات (لو ١: ٤٤)، أما الثاني فأرسله إليه بيلاطس عند محاكمته، وكان كل همه أن يرى آية لا أن يتمتع به (لو ٢٣: ٧-٩).

ثالثًا: **آمن كلاهما بالقيامة من الأموات**، الأول من أجل القيامة سلم حياته للموت في شجاعة، والثاني إيمانه بالقيامة جعله يرتعب خشية أن يكون يوحنا قد قام!

رابعًا: **استلم كلاهما رسالة من السيد المسيح**، استلمها الأول خلال تلميذيه اللذين أرسلهما إليه ليسألاه: "أنت هو الآتي أم ننتظر آخر"؟ (مت ١١: ٣)، وقد مدحه السيد (مت ١١: ٩-١١)، أما الرسالة التي وجهها السيد لهيرودس فهي: "امضوا وقولوا لهذا الثعلب: ها أنا أُخرج شياطين، وأشفي اليوم وغدًا وفي اليوم الثالث أكمل" (لو ١٣: ٣٢)، إذ تقدم بعض الفريسيين للسيد يطلبون منه أن يخرج من هناك لأن هيرودس يريد أن يقتله.

---

[1] *In Matt. hom 48:6.*

خامسًا: **مات كلاهما في سجنه**، الأول استشهد في سجنه لإعلانه كلمة الحق، والثاني أغرته زوجته على الذهاب إلى روما يطلب من الإمبراطور كاليجولا أن يمنحه لقب الملك، فغضب عليه ونفاه إلى ليون[1] ثم إلى أسبانيا[2]، وفي منفاه أو سجنه مات.

[1] *Joseph: Sntiq 18: 7.*
[2] *Josephus: War 2: 9: 6.*

١٠

قصة استشهاد القديس يوحنا

كما يصورها القديس مار يعقوب السروجي

قلب ناري مقدس

يقدم لنا **القديس مار يعقوب السروجي** بأسلوبه الروحي الشعري، وفكره الملتهب بحب الله، وقلبه المتسع نحو البشرية، ميمرًا رائعًا عن القديس يوحنا المعمدان يكشف فيه عن تقديره العجيب لهذه الشخصية، ويبرز فيه ما وراء أحداث استشهاده من مشاعر عميقة للقديس، وما كان يدور في أفكار الشخصيات التي ارتبطت بهذا الحدث، وما حملوه في قلوبهم.

عيد ميلاد هيرودس

لم يتم استشهاد القديس خلال انفعال سريع سواء من جهة القديس أو الملك هيرودس أو امرأة أخيه أو ابنتها. إنما جاء ثمرة قلب ناري مقدس لا يطيق الإثم والفساد والنجاسة.

أبرز القديس مار يعقوب السروجي النقاط التالية:

١. لاحظ القديس يوحنا أن هيرودس الملك يكسر حتى الناموس الطبيعي، فيشتهي هيروديا امرأة أخيه الذي كان لا زال حيًا ليتزوجها. لم يستطع يوحنا أن يأخذ موقفًا سلبيًا، فيتجاهل هذا الأمر أو يهرب من المنطقة حتى لا يبكته ضميره على صمته. زالت من أمام عينيه كرامة الملوكية، فاحتقر هيرودس ورذله ووبخه وحسبه شخصية مستهترة، يعجز أن يقود الشعب كملكٍ وهو عاجز عن قيادة عواطفه.

٢. كان يمكن للقديس يوحنا أن ينذر هيرودس ويهرب من وجهه، لكن أصرّ أن يواجهه بفساده هذا في كل فرصة متاحة له، إن أمكن في كل يومٍ بل وفي كل ساعةٍ.

٣. يبدو أن علاقة هيرودس بامرأة أخيه عكست فسادًا في أفكار ابنتها. ويبدو أن يوحنا لم يتجاهل ما سقطت فيه الأم وابنتها، إذ أراد أن يطفئ شهواتهما الشريرة بالتعليم المقدس.

٤. يوّلد الشرّ شرًا، ففساد الملك وامرأة أخيه وابنتها انعكس على القيادات والرئاسات. تبارى الكل كيف يُظهرون بهجة في الحفل العظيم الذي أقامه هيرودس بمناسبة عيد ميلاده، ففتحوا الباب للشيطان أن يسيطر عليهم ومعه الشهوات الشريرة والسُكر بالخمر بغير اعتدال، وهكذا فقد المشتركون في الحفل الحرية الحقيقية الداخلية!

❖ رأى (يوحنا) هيرودس يدنس امرأة أخيه، فاحتقره ورذله ووبخه مثل (شخصٍ) من العامة...
بسببها كان يوبخه أمام الكثيرين في كل الأوقات وفي كل الأيام وفي كل الساعات.
كانت الشهوة الرديئة مضطرمة في هيروديا وفي هيرودس، وبتعليمه أراد أن يطفئها...
إذ حان عيد ميلاد الملك أقام حفلاً عظيمًا، ودعا رؤساء البلد إلى الوليمة...
كان كل واحدٍ فرحًا لأجل الملك، ليظهر له بأنه مفتخر جدًا بعيده العظيم ويجلّه،
أظهر المراؤون محبتهم هناك بكثرة الخمر الذي احتسوه حتى يكرموا العيد العظيم.
دخل الشيطان والشهوة والخمر عند آل هيرودس وكثر الشر، وفقد جميعهم الحرية...
حسب كل واحدٍ شرب الخمر الكثير واجبًا، فشرب كل منهم على صحة الملك في العيد العظيم[١].

القديس مار يعقوب السروجي

الشيطان يوسوس في قلب هيروديا بالانتقام

رأى **مار يعقوب السروجي** الحفل العظيم قد حوّل الموضع إلى أرض مملوءة شوكًا وحسكًا (تك ٣: ١٨)، وجعل من القصر الملكي وصالات الاحتفال أدغالاً سيئة. إذ كان يوحنا عظيمًا في أعين الشعب، ومهوبًا. يرى السروجي أن الشيطان في استخفافٍ به، أشار على هيروديا، قائلاً: "قد آن الأوان للانتقام من لسان "**ذاك العبراني**". وكعادته يغوي الشيطان الإنسان على الخطية، فيفتح له طريقها الواسع، إذ قال لها: "الأمر بسيط للغاية، إن قتلتي يوحنا تثبتين كملكة، ولا يستبعدك أحد من الملك الذي يحبك!"

❖ زرع الأشواك في الأرض المربية أدغالاً سيئة، وأقلق المدنسة بأفكار مضطربة.
وألقى في فؤادها وقال لها من الداخل: ها قد حان الأوان لتأخذي نفس ذلك البار.
ها قد حان الأوان ليغلق السيف بالدم فم المُهين الذي كان يحتقركِ ويشتمك.
ها قد آن الأوان ليصمت صوت ذلك الكارز من الإهانات والاستهزاءات التي كان يقذفكِ بها.
ها قد آن الأوان لتنتهي إهانتك من لسان ذاك العبراني الذي جعلكِ سخرية للجليليين.
ها قد آن الأوان لينتقم لك السيف من الرجل الذي كان يوجه إليك كل يومٍ عبارات الهزء.
إن مات يوحنا تمكثين في المملكة، إذ لا يُبعد (أحد غيره) الملكَ عنك[٢].

مار يعقوب السروجي

---

[١] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).
[٢] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

هيروديا تتبهرج

قدم الشيطان الخطوط العريضة للطريق الواسع الذي يؤدي إلى التخلص من يوحنا:

١. في دخولها صالة الحفل تحسب نفسها أنها على أرض معركة ضد يوحنا، سلاحها هو جمال ابنتها ورقصاتها المثيرة. ابنتها هي السيف الحاد الذي تستله هيروديا لتضرب به قلب هيرودس، فيخور تمامًا أمام ابنتها، ويقدم لها وعدًا أن يهبها ما تطلبه، فهو مستعد أن تقاسمه المملكة إن أرادت!

٢. تلتزم أن تعلّم ابنتها الافتراس، فتهجم كذئب مفترس على يوحنا كحملٍ هادئٍ مربوط ومسجون يعجز عن الحركة والهروب من أنيابها!

٣. قدمت لها ملابس جذابة حتى الحذاء، فتصير موضوع دهشة كل المشتركين في الحفل، في الوقت الذي فيه تفترس الحمل وتطلب رأس يوحنا على طبق.

❖ استلت حالاً بنتها كسيفٍ مختارٍ لتقتل جبار البرية بالحربة.

علّمت الذئب بنتها ماذا تفعل بالحمل البريء المربوط والمسجون في الحبس.

ألبستها لباس كل العهارة، وألبستها حذاءً لامعًا...

علّمتها وأرسلتها وعادت ودخلت عند المدعوين لتسبيهم...

مار يعقوب السروجي

ابنة هيروديا ترقص

دخلت ابنة هيروديا الحفل، وفي رقصاتها ركزت على إبراز الحذاء اللامع، فسبت قلب الملك وكل الحاضرين. بسيور حذائها قيدت كل الحاضرين وسحبت قلوبهم بالشهوة.

انتصرت الابنة على الملك الضعيف وكل المدعوين، وسخرت بهم، لأنهم صاروا أسرى حرب بغير سلاحٍ، بل برقصاتها ولمعان حذائها. دخلت في معركة مع الملك وقادة الجيش والشعب، وكسبت المعركة، وطلبت اللؤلؤة الثمينة تُقدم لها علانية على طبقٍ!

❖ أضحوكة عظمى على جبابرة المملكة، بحيث ربطتهم جميعًا شابة واحدة وأخزتهم.

دخلت الشابة على فوج ملكٍ ضعيفٍ وبحذائها سبت كل فوجه بلا حرب...

أيها الرجال، يستحق صنيعكم السخرية وأنتم متباهون، إذ سبتكم شابة واحدة بالرقص حتى تخضعوا لها.

شنت الشابة الحرب ضد جبابرتكم، وأخذت منكم اللؤلؤة التي لا تُثمن...

مار يعقوب السروجي

هيرودس يحلف أن يعطي ابنة هيروديا ما شاءته

صارت ابنة هيروديا ابنة الأفاعي، لأنها سمعت لصوت الحية المخادعة.

بث عدو الخير في الأم كما في ابنتها روح التشامخ والعنف، فطلبت رأس القديس أن يُقدم لها بكرامة كغالبة ومنتصرة. حسبت هذه الرأس المقطوعة أثمن من نصف المملكة، لأنها ظنت أنها تُبكم فمه.

❖ سُرّ الملك ورؤساؤه بالرقص، فوعد ابنة الزانية أن يعطيها أجرة جيدة.

إذ أحبها كثيرًا، وعدها بالكثير حتى أنها تتقاسم المملكة معه لو شاءت.

كان يقول لبنت الأفاعي: اطلبي وأعطيكِ واحلف بأنكِ بقدر ما تشائين تأخذين أجرتكِ.

قالت الشريرة: أعطني رأس ذلك الكارز هنا على طبق أمام المدعوين كما سألتك[1].

مار يعقوب السروجي

لو حنث هيرودس وكذب لكان أفضل له

في تشامخ وعد هيرودس ابنة هيروديا أن يعطيها نصف المملكة إن أرادت، فالمملكة كلها تحت سلطانه، أما هي فطلبت منه ما هو ليس في سلطانه، إذ طلبت قتل البار الذي لم يقتل أحدًا، فكسر الملك الناموس الطبيعي وقتل البار.

❖ حلف أن يعطي لها نصف مملكته لا رأس ذلك البار الذي لم يكن يملكه.

لا يوجد ناموس يحكم بالموت على البار، بموجب الناموس من لم يقتل أحدًا لا يقتلونه[2].

مار يعقوب السروجي

سلطان الملوك على رعاياهم

يرى القديس مار يعقوب السروجي أن الملك لم يكن يحتاج أن يُقسم (يحلف)، لأنه كأسيرٍ لشهوته نحو امرأة أخيه لم يكن ممكنًا أن يرفض طلبة ابنتها، خاصة وأنه كان يعلم تمامًا أن هذه الطلبة خرجت من قلب هيروديا قبل أن تطلبها من ابنتها.

كانت ثمرة الاستهتار أن تحوّل حفل عيد الميلاد إلى مجلس مستهزئين، وصار الملك أضحوكة يسخر به الجهال والأشرار.

---

[1] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

[2] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

❖ كان مغرمًا كثيرًا بمحبة أمها الفاجرة، ولهذا أعطى حالاً للشابة ما سألته.
كان سيعطيها سواء حلف أو لم يحلف، لأن كل قلبه كان خاضعًا للشهوة البغيضة.
أظهر ذاك الكذاب بأنه متضايق بسبب الناس، ولئلا يكذب أعطى الهبة كما قال.
وخجل كل متكأ الجهال والفاجرات، وصار الملك أضحوكة عظمى بسبب القتل الذي ارتكبه.
طلبت منه الشابة دون أن يشاء كما قال، فأعطى هبة أمام المدعويين لأنه حلف[1].

مار يعقوب السروجي

هيرودس الروماني يأمر بقطع رأس يوحنا

إنها لحظات خطيرة حين جاء السياف وقد وضع رأس البار المقطوعة على طبقٍ، وسلمها للملك كي يقدمها مكافأة لابنة هيروديا على رقصاتها.

تُرى ماذا كانت مشاعر جماهير المدعوين؟ لم تتسلل دمعة من عين أحدهم عندما قُدمت رأس العفيف ثمنًا لرقصات فتاةٍ لعوب! لم يرتعب قلب الملك، وهو يعلم أن هذه الجريمة هي ثمن شهوته الشريرة!

❖ أرسل الملك وقطع رأس ذلك الكارز، وأُتى به على طبق، وأعطاه للشابة لتأخذه لأمها...
لم يخف أولئك الدنسون أبناء جهنم، وهم ينظرون إلى رأس رجلٍ عفيفٍ مقطوع.
لم يرتجفوا ولم تسقط الكؤوس من أيديهم بعد أن شاهدوا دم ذلك الكريم مسكوبًا.
لم يوجد بينهم واحد يخالف الواجب ليبكي بسبب الجريمة العظمى التي حدثت هناك.
لم يرتعب قلب الملك الحقير الذي رأى فم ذلك المعلم مسدودًا بدمه الطاهر[2].

مار يعقوب السروجي

هيروديا تستلم رأس يوحنا بفرحٍ

شعرت هيروديا بالشماتة وهي تتسلم الرأس المقطوع والفم المُبكم بالدم البريء. ربما شعرت بالنُصرة بروح الانتقام، فإنه لن يجسر أحد بعد أن يبكتها على زواجها من أخي زوجها!

ظنت أن فمه يصمت إلى الأبد بغير إرادته، ولا يوجد بعد من يبكت الملك ويحطم سعادته وسعادتها.

---

[1] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

[2] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

❖ لعل الزانية ضحكت ضحكًا وهي تحتقر البهي المقتول وتعيِّره.

وابتهجت أمام بنتها وغنّت، لأنها دخلت ورقصت وأخذت وخرجت كما علّمتها.

قالت لابنتها: هلمي نفرح بالفم المغلق بالدم والصامت، سوف لا نسمع منه الإهانة.

هذا جعلنا أضحوكة في بلد الجليليين، ورجمنا بالشتائم كما لو كان بالحجارة.

هذا الفم كان ينفث فينا النار كل يومٍ، ويخيفنا لئلا ندخل إلى بيت الملك.

هذا أرهب الملكَ كثيرًا بالظلمة وبجهنم حتى لا يقترب مني لو سمعه.

هذا جعلني مثلاً في فم العبرانيات، تتحدثن عني كما لو كان عن خبر العاهرات.

ليسكت الآن، لأنه لم يرِد أن يصمت عنا، فجعلته يسكت بدون إرادته، وسوف لن يهيننا بعدُ[1].

مار يعقوب السروجي

يوحنا سراج ذهبي مملوء بزيت القداسة

ظنت هيروديا وابنتها وهيرودس أنهم قد انتصروا في المعركة، وأن قصة يوحنا صارت درسًا عمليًا لمن يتجاسر ويوبخ الملك حتى وإن كسر الناموس الطبيعي، لكنهم لم يدركوا أنهم بهذا العمل الأثيم صارت قصة استشهاد يوحنا جزءًا لا يتجزأ من الإنجيل المقدس، تدفع الكثيرين إلى حياة العفة والطهارة عبر العصور.

قام القديس مار يعقوب السروجي بتقييم هذا العمل المؤسف هكذا:

أ. تلألأت شخصية القديس يوحنا كبارٍ قتله أثمة، ظُلم فتبرر، بينما حُسب مرتكبو هذا الفعل مجرمين.

ب. ظنت الزانية أنها قتلت البتول، وتخلصت منه.

ج. إنه سراج ذهبي أي سماوي مملوء بزيت القداسة، أي بالنعمة الإلهية. إن كانت الفتاة قد نفخت فيه فأطفأته، فهو كوكب منير في السماء!

د. إنه كشجرة زيتونة، بسحق ثمارها يخرج زيتًا مقدسًا يُدهن به المُعمدون.

هـ. ابكموا فم القديس حتى لا يتكلم، وإذا به يصير مزمارًا روحيًا يعزف الألحان السماوية.

و. قُتل ظلمًا بسبب زانية، فصار قيثارة تعزف، فتهرب الشياطين.

ز. لم تحتمل الزانية صوت تبكيته فقتلته، صار قيثارة روحية تعزف تسبحة التوبة للشعوب.

ح. كان كشجرة تثمر إيمانًا لا يطيقه الأشرار.

---

[1] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

ط. إنه صديق العروس خطبها للعريس السماوي، فصارت ملكة تجلس عن يمين الملك.

❖ عمل شرير لرجلٍ عادلٍ (أي يوحنا المعمدان) من قبل الأثمة (أي هيروديا وابنتها وهيرودس)، قتيل مظلوم بالمحاباة من قبل المجرمين.

منظر مريع: **بتول مقتول من قبل الزانية**، وخوف عظيم: كاهن مذبوح دون أن يذنب.

سراج ذهبي مملوء بزيت القداسة، وبدل الريح نفخت الشابة وأطفأته.

زيتون ممجد نبت على جدول المعمودية، وقطعه الملاعين لئلا يدهن زيته الرأس.

صوت كرز بملكوت الله، وقد نبحه الإثم وأسكته لئلا يتكلم.

مزمار مملوءة أنغامًا وغنى الألحان، وقد حسده الصم وكسروه لئلا يزمر.

كان **قيثارة تطرد الشياطين** من الإنسانية، ولئلا يخرج شيطانها دمرتها هيروديا.

كان بوقارٍ يكرز بالقداسة على الأرض، ولم يرضِ صوتُه الزانيةَ فأبطلته.

كان **كنارة (آلة موسيقية) توقظ الشعوب للتوبة**، ولئلا يتوبوا أسكته جهال آل هيرودس.

كان **شجرة تحمل ثمار الإيمان**، فاستأصله الأشرار لئلا يأكل أحد من ثماره.

صديق العروس الذي خطبها وأعطاها للختن الملك، قطعوا رأسه لئلا يدخل إلى الوليمة[1].

مار يعقوب السروجي

بداية يوحنا ونهايته تمتا بالرقص

إذ هو الوحيد الأعظم بين مواليد النساء، اتسم بأنه متميز في أمورٍ كثيرة، منها:

١. متميز في موته فمات شهيدًا، من أجل توبيخه إنسانة شريرة، ومتميز في الحبل به إذ كانت أمه عاقرًا ووالده شيخًا.

٢. رقص وهو جنين، وقُطعت رأسه ثمنًا لرقصة ابنة هيروديا.

٣. قُدمت رأسه على طبقٍ بطريقة فريدة.

٤. أرادوا السخرية به، فإذا برأسه المقطوعة لؤلؤة ثمينة.

٥. كان المدعوون في الحفل يزفون الرأس على طبقٍ مختارٍ.

٦. لم يعرف القديس مار يعقوب السروجي بماذا يدعو هذا القديس. إنه محب للمسيا العريس السماوي،

[1] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

وصديق الكنيسة العروس، قام بتعميد ربه، كما قام بالكرازة بالحق منذ كان جنينًا إلى لحظات استشهاده، كرز برقصه في أحشاء أمه، وكرز بالحياة المقدسة في البرية، وكرز عند الأردن، كما كرز بسفك دمه الخ. بحقٍ ليس من هو أعظم منه بين مواليد النساء.

❖ كان موته متميزًا عن بقية الميتات بالنسبة إلى من يتأمل فيه، كما كان الحبل به في البطن متميزًا عن الحبل بالآخرين.

الحبل به بالرقص، وموته بالرقص، وقصته بعجبٍ: نهاية ابن اللاويين صارت كبدايته.

رقص في بطن العجوز أمام ربه، وإذ كانت الشابة تتمايل بالرقص أوقعته لكي يموت.

العجوز بدأت والشابة أنهت مسيرة دربه، وموته معروف من قبل كل العالم لكونه محبوبًا...

لما ظنوا بأنهم يهينونه، أكرموه كثيرًا وأُتى على طبق كهدية في عيدٍ عظيمٍ.

بمناسبة ميلاد الملك حملوه على أيديهم، وكان يُزفّ كطوقٍ ذهبي مختار.

كان هذا يمده إلى ذاك، وهم ينظرون إليه ويحافظون عليه كما لو كان منظر لؤلؤة.

كان عيدًا لم يوجد أعظم منه للملك، وفي ذلك اليوم زفّوه في احتفالاتهم.

قُدّم رأسه الذي لا يُدرَك جماله على طبقٍ أمام المدعوين مثل تفاح الذهب.

وردٌ نبت في قفر اليهودية، جلبه الملك في يوم عيده، ووضعه على طبقٍ ودخل إلى الوليمة.

عنقود حلو عصروه في طبق الملك، وهوذا كل الخليقة تتنعم بطعمه الحلو.

محب الختن، وصديق العروس. ومعمِد ربَه، ومعلم الحياة، وكارز الحق، والكاهن العظيم.

والبتول البهي، ورجل الشهرة، والحاذق في الأنبياء، والمختلط في الرسل، وسامع الآب، وماسك الابن.

ورائي الروح، ومتعلم الأسرار، وموبخ الملوك، والقصر الطاهر، والمبخرة المختارة، والرائحة الحلوة.

وعدو الأشرار، وموقظ التائبين، ورفيق القديسين، والمضطهَد من قبل الإثم، والمسجون بالغيرة، والقتيل بالحسد.

لا يوجد آخر أعظم منه بين المولودين، مبارك الكلمة الذي جعله صوتًا وأرسله أمامه[1].

مار يعقوب السروجي

[1] ميمر ٩٦ على قطع رأس يوحنا المعمدان (راجع الأب بول بيجان، ترجمة دكتور سوني بهنام).

المحتويات

١ معاهد لإعداد القديس يوحنا المعمدان ٦
هل من بين المولودين من النساء من هو أعظم منه؟..... ٦
هل التحق بمعاهد تهيئه للخدمة؟..... ٧
٢ أعظم مواليد النساء ١٠
نبي هو أم رسول..... ١٠
مقارنته بآباء العهد القديم ١٠
يوحنا لم يصنع آيات ظاهرة..... ١١
٣ ابن البرية المقدسة ١٣
٤ لست مستحقًا أن أحلّ سيور حذائه..... ١٤
٥ صوت صارخ..... ١٥
"أنا صوت صارخ في البرية" (يو ١: ٢٣)..... ١٥
يوحنا الصوت والمسيح الكلمة..... ١٦
"لم يكن هو النور بل ليشهد للنور" [٨] ١٧
ملاك الرب يهيئ الطريق أمامه ١٨
٦ هذا هو إيليّا المزمع أن يأتي (مت ١١: ١٤)..... ٢٠
٧ ينبغي أن ذلك يزيد وأنِّي أنا أنقص (يو ٣: ٣٠) ٢١
٨ معمودية يوحنا ٢٣
معمودية يوحنا هيأت الطريق لمعمودية المسيح ٢٣
الأنواع المختلفة للمعموديّة ٢٣
الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه" (مت ١١: ١١)..... ٢٤
٩ مقاومة إبليس له ٢٦
خطة شيطانية تُقدم لقلب هيروديا ٢٦
القدّيس يوحنا في السجن يرمز لتقييد الناموس..... ٢٦
ارسالية من السجن إلى السيد المسيح..... ٢٧
شهادة السيّد المسيح ليوحنا (مت ١١: ٧-٨)..... ٢٨

هل كان يوحنا قصبة تحرّكها الريح؟..... ٢٩
أصحاب الثياب الناعمة ٣٠
هيرودس وصوت يوحنا المُرهِب!..... ٣٠
مقارنة بين القديس يوحنا المعمدان وهيرودس ٣١
١٠ قصة استشهاد القديس يوحنا ٣٢
قلب ناري مقدس ٣٣
عيد ميلاد هيرودس ٣٣
الشيطان يوسوس في قلب هيروديا بالانتقام..... ٣٤
هيروديا تتبهرج..... ٣٥
ابنة هيروديا ترقص ٣٥
هيرودس يحلف أن يعطي ابنة هيروديا ما شاءته ٣٦
لو حنث هيرودس وكذب لكان أفضل له..... ٣٦
سلطان الملوك على رعاياهم..... ٣٦
هيرودس الروماني يأمر بقطع رأس يوحنا..... ٣٧
هيروديا تستلم رأس يوحنا بفرحٍ..... ٣٧
يوحنا سراج ذهبي مملوء بزيت القداسة ٣٨
بداية يوحنا ونهايته تمتا بالرقص ٣٩

الكلام عن يوحنا صعب جدًا، وليس له جمال واحد حتى نذكره، بل هو كثير الجمال.
كيف اجرؤ على وصف هذا الجمال؟ فالكلمة تتعطل بسبب كثرة جماله.
بأية كلمات وميامر أكرز بهذا العظيم؟ فاللسان يعجز ويرتجف من قصته...
انه محب الختن، وصديق العروس. ومعيد ربّه، ومعلم الحياة، وكارز الحق، والكاهن العظيم.
والبتول البهي، والحاذق في الأنبياء، والمختلط في الرسل، وسامع الآب، وماسك الابن،
ورائي الروح، ومتعلم الأسرار، وموبخ الملوك، والبخرة الفتارة، والرائحة الحلوة.
وعدو الأشرار، وموقظ التائبين، ورفيق القديسين، والمضطهَد من قبل الإثم، والمهون بالغيرة، والمقتول بالحسد.
لا يوجد آخر اعظم منه بين المولودين، مبارك الكلمة الذي جعله صوتًا وارسله امامه.

القديس مار يعقوب السروجي